ISSN: 1999-5601 (Print) 2663-5836 (online)

Lark Journal

Available online at: https://lark.uowasit.edu.iq

*Corresponding author:

Asst.Lect: Omar Falah Abdul Jabbar
University: Iraq University
College: College of Arts
Email:
omar.falah.2023@gmail.com

Keywords: Ahmed bin Tulun, Al-Mu'tadid Caliph, Al-Muwaffaq Talha, Khimarawiyyah.

A R T I C L E I N F O

Article history:

Received	15	may	2023
Accepted	13	Nov	2023
Available online	1	Jan	2024

The Tulunid Emirate: Its Rise and Fall (254-292 AH)

A B S T R U C T

The Abbasid Caliphate during the Second Abbasid Era (232-334 AH) witnessed a state of weakness and division as weak and inexperienced caliphs took charge. Occupied with frivolities and pleasures, they weakened the authority of the caliphate and distanced Arabs from positions of power and the military. They handed over the reins of affairs and the army to Turkish elements, leading to errors. Most Turkish leaders marginalized the caliphs and persecuted them, prompting some regional leaders within the Abbasid state to declare independence and establish separate emirates or states. However, their religious ties remained connected to the caliphate.

This led to the emergence of emirates in the east and west. One such emirate was the Tulunid Emirate established by the Turkish leader Ahmed bin Tulun who succeeded in reforming its conditions after the caliphate failed to do so.

© 2024 LARK, College of Art, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/

الإمارة الطولونية قيامها وسقوطها (254-292هـ)

م.م عمر فلاح عبد الجبار/كلية الآداب / الجامعة العراقية

الملخص:

مرت الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني للفترة (232-334هـ) بحالة ضعف وانقسام بعد أن تولى الخلافة فيها خلفاء ضعاف قليلي الحكمة لم يكونوا أهلاً للخلافة إنشغلوا باللهو واللذات فأسقطوا هيبة الخلافة وأبعدوا العرب عن مراكز السلطة والجيش، وقدموا العناصر التركية وسلموها مقاليد الأمور والجيش فأخطأوا وذلك أن أغلب قادة الترك استضعفوا الخلفاء واضطهدوهم وهذا ما شجع بعض أمراء أطراف الدولة العباسية في إعلان الانفصال عن المركز وتأسيس إمارات أو ولايات منفصلة إلا أن ارتباطهم الديني ظل مرتبطاً بالخلافة فنشأت إمارات في المشرق والمغرب ومن هذه الإمارات الإمارة الطولونية التي أسسها القائد التركي (أحمد بن طولون) في مصر والشام فاستطاع إصلاح أحوالها بعد أن عجزت الخلافة عن ذلك.

الكلمات المفتاحية: أحمد بن طولون، الخليفة المعتضد، الموفق طلحة، خماريه.

المقدمة:

إن سقوط الدولة العباسية على يد المغول سنة 656هـ لم يكن وليد الصدفة وإنما كانت له بدايات ترجع الى أوائل العصر العباسي الثاني وذلك بتولي الخلافة خلفاء ضعاف قليلي الخبرة والتجربة لتحمل الأعباء للمحافظة على دولة آبائهم التي بنيت على أجسادهم، وقد أسهبت المصادر التاريخية في ذكر أحوال الخلافة تلك، وتسلط الطامعين في المُلك من ترك وفرس خاصة في الأصقاع البعيدة عن المركز ليكونوا لهم إمارات أو دول منفصلة عن المركز حباً في الرياسة والجاه. ففي مصر استطاع القائد التركي أحمد بن طولون من الانفراد بحكم مصر مستغلاً ضعف المركز فحكم مصر حكماً ذاتياً استمر لمدة ثمان وثلاثون عاماً.

ومن خلال دراستي لهذا الموضوع ارتأيت أن أسلط الضوء على العوامل التي ساعدت أحمد بن طولون في إقامة إمارته فجعلت بحثي هذا من مقدمة ومبحثين وخاتمة، ففي المبحث الأول سلطتُ الضوء على شخص أحمد بن طولون وولايته على مصر. أما المبحث الثاني فقد سلطتُ الضوء على ضم الشام لملكه وأحوال الإمارة الاقتصادية بشكل عام.

المبحث الأول

1. احمد بن طولون - مؤسس الإمارة

أحمد بن طولون قائد تركي الأصل والده القائد التركي طولون الذي أرسل الى بغداد هدية من أمير بخارى نوح بن أسد الساماني الى الخليفة المأمون سنة (200هـ) (ابن بردي, 1963م،ص 3)، فأعجب به وألحقه ببلاط الخلافة وتدرج في المناصب حتى صار رئيساً للحرس وهي الوظائف المهمة في بلاط الخلافة.

ولد أحمد بن طولون في بغداد سنة (200هـ) فعني به طولون عناية فائقة وحرص على تعليمه خاصة وأنه ظهرت عليه علامات النجابة والشغف بطلب العلم منذ نعومة أظافره (البلوي، د.ت, ص 35) فأتقن اللغة، وحفظ القرآن فأتقنه، وكان من أطيب الناس صوتاً بالقرآن، تفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان(ابن بردي, 1963 ،ص3-4)، كان معظماً للشعائر(الذهبي،1985م،ج 13/ص95)، أكثر من مجالسة الفقهاء والعلماء، فنشأ على طريقة مستقيمة وسيرة حسنة (ابن الأثير, 1965م،ج 6/ص250) كان جوّاداً، متواضعاً، كثير الصدقة، كان يتصدق بألف دينار كل شهر ويقول لوكيله على الصدقات: (لا ترد يداً مُدّتْ إليك أبداً) (ابن خلكان, 1971م، 1ج/ص173). إن ثقافة الدينية رفعته قدراً على أصحابه فكان إذا جرت منه إساءة استغفر وتضرع (ابن بردي، 1963، ج3/ص9) كان عزوفاً عن اللهو منقطع أحياناً الى النسك والعبادة (البلوي، د.ت ، ص 110) إذ لما ولي مصر جعل له قبة أعلى قصره يجلس فيها رجال سماهم المكبرون عدتهم أثنا عشر رجلاً يتعاقبون ليلاً فيكبرون، ويهللون، ويسبحون، ويقرأون القرآن ويترسلون بقصائد زهدية، ويؤذنون أوقات الآذان (ابن بردي، 1963،ج 3/ص17). كان بطلاً شجاعاً مقداماً مهيب الجانب (الذهبي, 1985 ، ج13/ص94)، حتى صار له في الدنيا الذكر الجميل، فزوجه القائد التركي يارجوخ إبنته (ابن بردي، 1963، ج3/ص4).

اشتهر احمد بن طولون بحبه للجهاد، فتعلم الفنون العسكرية وأتقنها (ابن الأثير،1965 ، 6ج/ص347)، فامتاز بمهارة حسن الرمي بالنشاب فكان لا يخطئ شيئاً (البلوي، د.ت, ص 34)، أقبل على الجهاد بسن مبكرة فقد كان يتنقل الى طرسوس في آسيا الصغرة من حين لآخر ليقيم الجهاد في الثغر فضلاً عن وظيفته في حاضرة الخلافة، فاكتسب بذلك معرفة وتجارب (خليفة، د.ت, ص 165).

إن أغلب قادة الترك في هذه الفترة استضعفوا الخلفاء العباسيين واضطهدوهم. وهذا ما كان يرفضه أحمد بن طولون وينكره، إذ كان شديد الازدراء على القادة الترك لما كانوا يرتكبونه من فضائع في أمر الخلفاء وغير راضٍ عما يأتونه، ويتبرأ من أفعالهم فيقول أن حرمة الدين عندهم مهتوكة. ويستنكر ذلك بقوله: (الى متى نقيم على هذا الإثم مع هؤلاء الموالي فلا يطأون موطئاً إلا كتب علينا الخطأ والإثم) (ابن بردي،1963،ج 3/ص4) لذا نجد أنه طلب من الوزير يحيى بن خاقان وكان من خاصته أن يكتب له رزقه

في الثغور ليكون في جهاد متصل فأذن له، وساعد وجود أحمد بن طولون في الثغور الشامية ومجالسته لعلماء وفقهاء الشام في صقل موهبته وتهذيب أخلاقه حتى صار من الثقاة على الأموال والأسرار والفروج (البلوي، د.ت ، ص 35).

رغم ثناء أغلب المصادر والمراجع التاريخية على الخصال المحمودة لأحمد بن طولون إلا اننا نجد انها اتفقت على أنه كان طائش السيف، حاد المزاج (ابن خلكان، 1971 ، ج1/ص173)، لا يسمع حوار ولا مناقشة إلا ما هو على هوى نفسه (البلوي، د.ت ، ص23)، أفرط في إهلاك من نالوا منه، كان حذراً لا يأمن إلا للقليل، من دهاة الملوك، جبار سفاك للدماء (ابن خلكان، 1971 ، ج1/ص173). حتى قيل انه أحصى من قتله ابن طولون صبراً، ومن مات في حبسه ثمانية عشر ألفاً (ابن بردي، 1963، ج3/ص4) وإن كان هذا العدد مبالغ به حسب ما نرى إلا أن البعض أقره على ابن طولون وذلك لأنه كان مستبداً لا يقبل النصيحة إلا نادراً فقد أنكر عليه أحد الصالحين يوماً شيئاً من المنكرات وأمره بالمعروف فثار عليه وألقاه للسباع (السيوطي، 1967م ، ج422/1).

من ذلك نرى انه يمكن القول ان لأحمد بن طولون سيئات ولكن حسناته غلبت سيئاته.

2_ ولاية أحمد بن طولون على مصر: حظي القائد التركي بايكباك مكانة مرموقة لدى الخليفة المعتز (252-255 هـ) إذ كان يشرف على إدارة شؤون الدولة (خليفة، د.ت ، ص 163) وذلك لأنه كان من المؤيدين لخلع الخليفة المستعين (248-252 هـ) وتولية المعتز الذي أسند اليه ولاية مصر سنة (254 هـ) (ابن بردي، 1963، ج3/ص6) ولما تنكر الأتراك للخليفة المستعين وخلعوه فاحدروه الى واسط سألوه من تختار أن يكون في صحبتك فاختار أحمد بن طولون الذي كان من المعارضين للقادة الترك الذين أسرفوا في إذلال الخلفاء، فبعثوه فأحسن صحبته. ثم كتب الأتراك إلى أحمد بن طولون: (أقتل المستعين ونوليك واسطاً) فرفض وقال: (لا رآني الله قتلت خليفة بايعت له أبداً) (ابن بردي، 1963، ج3/ص6). فبعثوا من يقتله فقتله، إلا أن أحمد بن طولون تولى الصلاة عليه ودفنه وعاد إلى سامراء، فارتفعت منزلته في دار الخلافة ووصف بحسن المذهب، وصار في عداد من يوثق به ويؤتمن على الأموال والأسرار(المقريزي, 1998م،ج 120/2). فاختاره القائد بايكباك الذي تولى مصر ليكون له نائباً عليها دون الأعمال الخارجة عنها(المقريزي, 1998م،ج 2،ص120)، وذلك لأن القادة الترك كانوا يفضلون البقاء في عاصمة الخلافة ويتخذون لهم نواباً يحكمون تلك الولايات باسمهم، ليكونوا قريبين من مركز القرار السياسي وخوفاً من العزل بسبب كثرة الدسائس بين القادة الترك، ومن أجل أن يتمتعوا بمباهج الحياة في عاصمة الخلافة، ويكتفون بما يحصلون عليه من فائض الأموال التي ترسل إليهم كل عام، والدعاء لهم على منابر الولاية بعد الخليفة في الخطبة (سيدة أسماعيل كاشف، 1988م، ص 11).

قدم أحمد بن طولون مصر سنة (254هـ) فعمل منذ قدومه على تثبيت أركان حكمه، فمصر بطبيعتها تغري من ينزلها بالتوطن فيها ويصعب عليه مغادرتها(البلوي، د.ت، ص 17)، ومن أجل تحقيق هدفه بالاستقلال السياسي والإداري والمالي عمل بجدٍ وإخلاص حتى قوي نفوذه رغم إن سلطته كانت لا تتعدى مدينة العسكر، فأصلح أحوالها الاقتصادية في خطوات متسقة ومتتابعة (زيود، 1989, ص 33)، خدم الحظ أحمد بن طولون لما تولى يارجوخ ولاية مصر خلفاً لبايكباك الذي قتل سنة (255هـ) إذ أقر يارجوخ ابن طولون نائباً له على مصر كلها إذ كان صهره، فأقره على مدينة العسكر والإسكندرية والصعيد وبرقة (ابن خلدون, 1988م،ج 4/ص387) وكتب إليه: (تسلم من نفسك لنفسك) (البلوي، د.ت، ص 46) أي إمضِ في طريقك كما تريد رغم إن الخليفة المعتمد (256-279هـ) جعل ولاية مصر والمغرب إلى إبنه المفوض ولي عهده (ابن بردي، 1963،ج 3/ص24)، إلا أن هذا التقليد كان شكلياً فقط. فقد أصبح ابن طولون مستقلاً معتمداً على نفسه وجيشه فغض النظر عنه الخليفة لحسن العلاقة بينهما. أهتم ابن طولون بولاية مصر كلها إذ سار إلى الإسكندرية وأقر إليها على عمله بعد الاعتراف بولايته لما رآه عليه من حسن سيرة وتدبير، ثم سار إلى برقة فخضع له وإليها فاقرة على عمله أيضاً، كما تمكن من إخضاع معظم أصحاب الكور في البلاد لولايته بعد أن كانوا يتصرفون تصرفاً مستقلاً. وعين له نواباً عليها (زيود, 1989, ص 36).

واجه ابن طولون أول ما دخل مصر سنة (254هـ) معارضة من المتنفذين كوالي الخراج أحمد بن المدبر الذي كان يتمتع بسلطة قوية فخاف أن يسلبه أحمد بن طولون لها، فحاول استمالته، فبعث إليه عشرة آلاف دينار هدية استلامه الولاية إلا إن أحمد بن طولون رد عليه هديته (المقريزي, 1998م، ج2/ص121) وتوجس منه خيفة وذلك لأنه عندما خرج لاستقباله خرج بموكب كبير إذ كان يمشي وبين يديه مائة غلام انتخبهم وأغدق عليهم وألبسهم الأقبية والمناطق المذهبة، وبأيديهم مقارع غلاض يقفون بين يديه في مجلسه إذا جلس، وإذا ركب ركبوا بين يديه فتصير له هيبة ورعب في صدور الناس، جدّ ابن طولون في إسقاط هيبة ابن المدبر إذ طلب منه بأن يتخلى عن حراسه ليلحقهم به لأنه أحوج منه إليهم فأدرك ابن المدبر بأنه ليس له سلطان معه فعمل على زرع الفتنة ضده مع الخلافة فكتب إلى الخليفة محذراً إياه منه بقوله: (ما ينبغي أن يثق السلطان بمن لم يكن لعشرة آلاف دينار في عينيه قدرٍ على طرف من أطراف ملكة(م. ن.ج 2/ص121)، واتخذ شقير الخادم, شقير الخادم صاحب البريد في مصر قبل مجيء أبن طولون إليها كان غلام لأم الخليفة المعتز، عذبه ابن طولون حتى مات لمّا علم بكتابه الى الخليفة. (ينظر:اليعقوبي، 1995،ج 2/ص354). الذي كان على البريد نفس الموقف ضد ابن طولون، وعلى أثر ذلك حاول الخليفة المعتمد أن يستدرج أحمد بن طولون لحاضرة الخلافة بكتابه: (إذا قرأت كتابنا هذا، فاستخلف على قصرك من أحببت، والبلد إليك وباسمك واشخص إلينا)(البلوي، د.ت، ص 56-57). شعر ابن طولون بالمكيدة فبعث كاتبه أحمد الواسطي الى

يارجوخ ومعه الأموال والهدايا وكان متمكناً في حاضرة الخلافة فسعى في أمره وأعفاه من الشخوص(ابن خلدون، تاريخ ، 387/4)، إلا إنه نجح فيما بعد بأن يستصدر من الخليفة المعتمد أمراً بولايته للخراج فجمع بذلك السلطتين المالية والسياسية التي مكنته من السير قدماً في الإصلاح إذ أنه بعد وفاة والي مصر يارجوخ (سنة 258 هـ) لم يعد ابن طولون وكيلاً لأحد فقد استبد واستقل بأمره وأصبح لا سلطان ولا خليفة يملي عليه، فعمل على إقرار الأمن في مصر والقضاء على الفتن والثورات التي واجهته، فقد خرج على ابن طولون بمنطقة الكنائس ما بين برقة والإسكندرية سنة (255 هـ) رجلاً طمع بملك مصر وادعى لنفسه نسباً علوياً وسمى نفسه أحمد بن محمد بن طباطبا شأنه شأن أكثر المعارضين للخلافة في ذلك الوقت إذ كان النسب العلوي يجذب الأتباع والأنصار، فجهز أحمد بن طولون حملة عسكرية بقيادة بهم بن الحسين فتمكن من هزمه وقتله(البلوي، د.ت، ص 62. ابن بردي، 1963،ج 3/ص6). كما ظهر علوي آخر عرف بابن الصوفي سنة (257هـ) الذي دعا لنفسه ودخل مدينة أسنا فنهبها وعاث فيها الفساد، فسَيَّرَ ابن طولون إليه جيشاً فهزموه الى الواحات ومن ثم هرب الى المدينة(ابن الأثير، 1965 ،ج 6/ص226). وكانت قبائل البجة يغيرون على الصعيد ويعيثون فيها وينهبون، فخرج لهم أبو عبد الرحمن العمري لنصرتهم غضباً لله ففتك بهم وسار الى بلادهم حتى أعطوه الجزية، فاشتدت شوكته وأحبه الناس فتوجس ابن طولون منه خوفاً على ملكه فبعث بالعساكر لحربه إلا أن العمري قال للقائد العسكري: (إني لم أخرج للفساد ولا لأذية مسلم أو ذمّي، إنما خرجت للجهاد فشاور أميرك فيّ)(ابن خلدون، 1998 ، ج4/ص392) فأبى قائد العسكر فتقاتلا فانهزم عسكر ابن طولون ورجعوا فأخبروه بشأنه فقال لهم، لقد نصره الله عليكم ببغيكم، ثم وثب على العمري بعد مدة غلامان لابن طولون فقتلاه من أجل نيل الحضوة عنده إلا إنه أمر بقتلهما نصرةً للحق، إذ كان سريع في انفاذ عقوبته لا يرجئها لغد يومه مع كل من يخرج عن طوعه أو ينافسه على ملكه. إن استقلال ابن طولون بولاية مصر كان لا يمنعه من الولاء للخلافة لإيمانه العميق بسلطتها الشرعية التي لابد أن يعترف بها لإضفاء الشرعية لحكمه لذا حرص في الدعاء للخليفة وإرسال الأموال والهدايا لكسب الود والرضى.

حاول ابن طولون النهوض بالطابع العمراني لمصر بعمارة خاصة تميز إمارته فبنى مدينة جديدة له ولجيشه بعد أن ضاقت عليهم مدينة العسكر سماها - القطائع - واتخذها عاصمة له وبذلك تكون القطائع العاصمة الثالثة لمصر بعد الفسطاط والعسكر، وهذا ما يعني ظهور كيان جديد أراد به ابن طولون أن يرضي طموحه نحو الأبهة والعظمة على غرار سامراء(سيدة اسماعيل، 1988ص 243). بناها شرق مدينة العسكر التي ضاقت عليه بمماليكه وعبيده ورعيته وجيشه إذ انه استكثر من العبيد والغلمان حتى بلغ عددهم نحو أربعة وعشرين ألفاً(المقريزي, 1998م،ج 1/ص177)، بناها على مساحة واسعة ميلاً في ميل فاستقر سلطانه في مصر معتمداً على نفسه ومواهبه وقوته العسكرية، ومما ساعد ابن طولون بالتوفيق في حكم

مصر إن في طباع أهلها من الانقياد لمن يعتقدون فيه الإخلاص لهم والحرص على إسعادهم. فقد حرص أحمد بن طولون على العدل بين رعيته فلا فرّق بين مسلم وقبطي ورومي ويهودي(البلوي، د.ت، ص 19)، وهذا ما جعل أهل مصر يلتفوا حوله ويعاضدوه فقويت شوكته وعظم سلطانه.

المبحث الثاني:

1. الطولونيون في الشام: بدأ أحمد بن طولون يتطلع للسيطرة على بلاد الشام لأنه بفراسته كان يدرك أن بلاد الشام هي مفتاح مصر وأمن الشام من أمن مصر وإن بلاد الشام هي خط دفاعه الأول عن سلطانه في مصر(زيود, 1989م، ص 3). واجه ابن طولون معارضه شديدة في تحقيق هدفه من قبل الموفق طلحة أخا الخليفة المعتمد (256-279هـ) إذ كان هو المتحكم بالدولة والذي قاد حركة إصلاحية بهدف النهوض بالسلطة المركزية والحد من النفوذ التركي وإعادة هيبة الخلافة في ظل ضعف الخليفة وانشغاله عن الرعية.

استغل أحمد بن طولون دعوة الخليفة له لمحاربة عيسى بن الشيخ والي الرملة الذي تغلب على دمشق وخلع الطاعة سنة (256هـ) واستولى على الأموال(المقريزي, 1998م،ج 2/ص122)، فعمل على بناء جيش قوي بمباركة الخلافة، فجهز جيشاً عظيماً من حيث العدد والعدة وعمل على إشراك عناصر عده بجيشه ليتفادى ما أصاب الخلافة من انتكاس بسبب اعتمادها على عنصر واحد في الجيش وأهملت العناصر الأخرى، فأعدّ جيشاً من الترك والروم والسودان والعبيد والمصريين بلغ تعداده مائة ألف مقاتل(الطبري, 1966م،ج 8/ص107). إلا انه لما خرج بجيشه تسلم أمراً من الخليفة يعفيه من قتال ابن الشيخ وتكليف القائد التركي أماجور لهذه المهمة وتقليده دمشق وأعمالها(ابن الأثير، 1965, ج6/ص290) وكان أماجور من المعارضين لدخول ابن طولون للشام إذ أرسل إلى الخليفة المعتمد محذراً إياه بقوله: (أما بعد فقد اجتمع لابن طولون أكثر مما كان لابن الشيخ والخوف منه أكثر)(البلوي، د.ت، ص 56. ابن خلدون، 1998 ،ج 4/ص386).

كانت علاقة ابن طولون مع الخليفة المعتمد طيبة، فقد كتب إليه سنة (259هـ) يستحثه على جمع الأموال فكتب إليه: لست أطيق والخراج في يد غيري(المقريزي, 1998م،ج 2/ص130)، فأرسل إليه المعتمد بتقليده للخراج والثغور الشامية, الثغور الشامية (العواصم) هي مجموعة من المدن الساحلية في بلاد الشام يرابط فيها مشايخ المسلمين لحفظها من هجمات الروم وأشهر مدنها طرسوس وانطاكية وعسقلان والمصيصة وغيرها. (ينظر: البلاذري: 1982م، ص 223) ، رغم معارضة الموفق طلحة الذي سأل الخليفة بأن يولي الثغور من يحفظها وأن ابن طولون لا يؤمن عليها(ابن خلدون، 1998 ،ج 4/ص386)، وذلك لأن الموفق كان قد طلب من ابن طولون إرسال الأموال والخيل والرقيق غير أن الموفق استقل الأموال المرسلة له فعنف ابن طولون وهدده بالعزل، أما ابن طولون فلم يرعه ذلك بعد أن اشتدت شوكته وقوي

سلطانه. عمل ابن طولون من أجل تحقيق هدفه بضم الشام لملكه على كسب ود الخليفة المعتمد إذ كان يتعاهده بالأموال والهدايا فبلغ ما حمله ابن طولون الى المعتمد وفرق في جماعته وحاشيته لأربع سنين (261-265هـ) ألف ألف ومائتا ألف دينار أرسلها له مع من يثق به ويأمنه على سره وماله(البلوي، د.ت، ص 363).

استغل ابن طولون تقليده الثغور الشامية فوظف له فكرة إعلان الجهاد الديني لكسب تأييد المسلمين له لقدسية الجهاد عند المجتمع الإسلامي فكثرت المطوعة بجيشه من أهل مصر وفلسطين(المسعودي, 1993م،ج 4/ص169) خاصة بعد أن خسر المسلمون بالثغور حصن اللؤلؤ الذي كان في نحر العدو وهدمت الثغور جراء غارات الروم. خرج ابن طولون لبسط سلطته بالثغور الشامية التي أقطعها إياه الخليفة المعتمد، واستخلف بمصر ابنه العباس (ابن الأثير، 1965، ج 7/ص316). فسار بجيشه حتى وصل الرملة فدخلها صلحاً وأقر واليها عليها، ثم دخل حمص صلحاً كذلك وأقر واليها عليها (المقريزي, 1998م،ج 2، ص130). ثم سار الى دمشق سنة (265هـ) فكتب الى واليها علي بن أماجور الذي تولى دمشق وأعمالها بعد أبيه بأن الخليفة المعتمد أقطعه الشام والثغور، فأجاب بالطاعة فدخل ابن طولون دمشق وأقام بها حتى استوثق له أمرها فنظم الأمور الإدارية والعسكرية ووضع يده على الأموال والخزائن (المسعودي، 1993, ج4/ص169). إن سرعة استجابة والي دمشق علي بن أماجور لابن طولون تظهر مدى قوة ابن طولون وجيشه وعجز علي بن أماجور عن مواجهته وانه وجد في الولاء له من مصلحته، فأقره ابن طولون على ولايته وأكرمه وهذه سياسة اتبعها ابن طولون في كسب الولاء واصطناع الرجال (محمد، 1989، ص 37.). إذ كان يرضي كل من تحدثه نفسه أن يجعله في تقلد عمل يرضيه.

استمر ابن طولون في إخضاع مدن الشام وإمدادها بالسلاح والرجال فبنى الحصون والقلاع فحصن الثغور. ففي سنة (265هـ) خرج إلى إنطاكية الذي رفض واليها سيما الطويل الخضوع له، فحاصر المدينة ونصب عليها المجانيق فطال الحصار فما كان من أهل المدينة إلا أن دلوه على ثغرة في البلدة مكنت ابن طولون من الدخول عنوة وقتل سيما الطويل (ابن الأثير، 1965، ج7/ص316)، وذلك لأن سيما الطويل كان سيء السيرة بأهل أنطاكية. ومضى ابن طولون الى طرسوس واعتزم المقام بها وأظهر الغزو فهابه الروم وبعثوا إليه بالهدايا لكسب وده حتى أن ملك الروم طلب الهدنة فشرط عليه ابن طولون رم الثغور وإصلاحها أولاً (ابن الأثير، 1965، ج6/ص347). ثم أطلق الروم أسرى المسلمين لإظهار حسن النية ومع كل أسير هدية (ابن كثير، د.ت ، ج14/ص565) وبذلك استطاع ابن طولون حماية ثغور الشام من هجمات الروم وعد هذا نصراً كبيراً للخلافة. إلا أن تفاقم الأوضاع الاقتصادية بطرسوس وارتفاع الأسعار من جراء إقامة ابن طولون بجيشه الجرار بها جعل أهلها يطلبون منه الرحيل عن مدينتهم فخرج ابن طولون منها، أراد

ابن طولون بخروجه من طرسوس خداع الروم وإشعارهم بقوة المدينة عسكرياً ومناعتها (المقريزي, 1998م،ج 2/ص87)، وانه على الرغم من كثرة عساكره لم يقدر على أهل طرسوس ففارقهم ليكون أهيب لهم في قلب العدو وليكفوا عن مهاجمتها مستقبلاً.

استمر ابن طولون بإخضاع مدن الشام فاستطاع ان يخضع حران لملكه بعد أن هزم عاملها محمد بن أتامش (ابن خلدون، 1998،ج 3/ص317) واستولى على حلب وولى عليها مملوكه لؤلؤ إلا أن انتفاض ابنه العباس الذي استخلفه على مصر وانقلابه على أبيه وخروجه من مصر مع أصحابه وأخذ كل ما في خزانة الإمارة من أموال فضلاً عن اقتراضه أموالاً كثيرة من كبار التجار بضمان والي الخراج وذهابه الى برقة منشقاً عن أبيه، عاد لمصر وحاول أن يعيد إبنه لصوابه ورشده فأبى حينئذ أرسل ابن طولون جيشاً لملاقاته فتمكن من إرجاعه إلى مصر وزجه بالسجن مع من حرضه على العصيان (الطبري،1966، ج9/ص545). وهذا ما يؤكد حرصه على تثبيت أركان حكمه ضد أي تمرد يزعزع أمن ولايته، فاستطاع تأمين ملكه وبسط نفوذه على كل أنحاء مصر والشام، فامتد سلطانه من مصر الى الفرات ومن مصر الى المغرب مستغلاً انشغال غريمه الموفق طلحة بحرب صاحب الزنج (كرد علي, 1983م، ص 173) وبذلك أصبحت مصر وبلاد الشام تخضع لسلطة موحدة خارج إطار سلطة الخلافة واستتب الحكم فيها لابن طولون بقوله: (تركنا لله عز وجل شيئاً واحداً فعوضنا الله عنه أشياء اعظم منه، كانت نهاية ما وعدنا به على قتل الخليفة المستعين بالله تقليد واسط فخفنا الله عز وجل، فعوضنا جل أسمه مصر والشامات، وسعة الأحوال معها) (ابن بردي، 1963،ج 3/ص6). وأخذ ابن طولون العهد على جميع قواده وخواصه بأن يعادوا من عاداه، ويوالوا من والاه، ويحاربوا من حاربه، فتغلغلت هيبته في نفوس الناس صغارا وكباراً (البلوي، د.ت، ص 70-71). وبذلك نجح ابن طولون في حماية الحدود الشمالية الغربية للدولة العباسية من غزوات الروم بعد أن تولى الغزو بجنوده المصرية والشامية فأوقع بالروم وقعات كبيرة (الخضري.2003م، ص 293). فقد غزا خلف الفرغاني نائب ابن طولون من ثغور الشام سنة (268هـ) فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً وغنم حتى بلغ السهم الواحد أربعين ديناراً (ابن بردي، 1963،ج 3/ص44). وذلك ان ابن طولون كان يعتقد بأن ولاءه للخلافة لا ينقص من سيادته على مصر والشام شيئاً، بل عدّ نفسه انه يعمل ذلك لصيانة الدولة (سليمان ، 2003, ص 27-28). إلا أن خروج ابن طولون للشام شجع أهل برقة على الخروج عن طاعته، فقد ثاروا على أميرهم محمد فرج الفرغاني وأخرجوه منها فبعث ابن طولون جيشاً لمحاربتهم عليه غلامه لؤلؤ وأمره بالرفق بهم واستعمال اللين إن انقادوا، وإلا فالسيف فحاصرها لؤلؤ حتى طلب اهلها الأمان منه فدخل المدينة وقبض على رؤسائهم وأخذهم أسرى، فكرمه ابن طولون وخلع عليه طوقان من ذهب (ابن الأثير، 1965، ج6/ص327. ابن خلدون، 1998 ،ج 4/ص391).

واجه ابن طولون مشاكل مع مركز الخلافة بسبب خلافه مع الموفق طلحة الذي كان صاحب الأمر والنهي بدار الخلافة وذلك ان البعض من ولاته وقواده أصبحوا يتخيرون بالولاء فيما بينهما حسب مصالحهم الشخصية حباً بالسلطة والنفوذ، فقد عصى لؤلؤ على مولاه ابن طولون سنة (268هـ) وكاتب الموفق بالمسير إليه وقطع الدعاء لمولاه في مدنه جميعاً، حمص، حلب، قنسرين، وديار مضر، ديار مضر ضمن أرض الجزيرة بين دجلة والفرات في السهل نحو حران والرقة. (ينظر: الحموي, 1977م، ج2/ص494) ، وكاتب الموفق بالقدوم إليه (ابن بردي، 1963،ج 3/ص44)، ووافقه أهل الثغور على ذلك وأخرجوا نواب ابن طولون، لم يقف ابن طولون مكتوف الأيدي ليرى ضياع ملكه فقد جهز جيشاً بمئة ألف مقاتل للدفاع عن مكاسبه بالقوة فاستطاع أن يعيد سلطته لتلك المدن ويصلح الأحوال ويستولي على الاموال، ولما كان ابن طولون شديد على من خالفه ولا ينسى الإساءة والخيانة لأحد فقد قبض على حرم لؤلؤ وولده، وصادر أمواله، أما لؤلؤ فقد هرب ولحق بالموفق طلحة (ابن خلدون، 1998، ج3/ص396. ابن بردي، 1963،ج 3/ص44) فكانت له صولات معه في حرب صاحب الزنج.

في ظل تولي الموفق طلحة زمام أمور الخلافة ساءت أحوال الخليفة المعتمد حتى أصبح لا يستطيع التصرف بألف دينار فكان كالمحجور عليه. فضجر من وضعه هذا. فكتب الى ابن طولون وكانت علاقته طيبة معه سنة (269هـ) يشكو سوء حاله وقسوة أخيه. فاستغل ابن طولون هذه الفرصة ليحد من سلطة ونفوذ غريمه الموفق، فقد كتب الى الخليفة يدعوه للقدوم إلى مصر وله النصرة وإنه اجتمع إليه مائة ألف عنان مؤلفة قلوبهم شديد بأسهم، فما عليه إلا الانجذاب إلى مصر، فان أمره يرجع بعد الإمتهان إلى نهاية العز، وإن له بيعة في عنقه، وإن أصر الموفق على الحجر عليه فسوف يدافع عنه ولو لم يبق معه أحد، وانه يطلب الشهادة في سبيل الله دفاعاً عنه، وخرج لاستقباله إلى دمشق (البلوي، د.ت، ص 304). يظهر من كتب ابن طولون التي دعاه فيها إلى مصر أنه أراد أن يعلي شأن مصر لتكون مصر مركزاً للخلافة وتحقيق نصراً على الموفق لتجريده من السند الشرعي المستند عليه وبذلك أعطى ابن طولون لنفسه حق المدافع عن الخليفة بقوة السلاح، أغرت دعوات ابن طولون الخليفة بالخروج الى مصر فخرج بخواصه منتهزاً فرصة انشغال الموفق طلحة بحرب صاحب الزنج. إلا أن عيون الموفق بدار الخلافة أوصلت له خبر خروج الخليفة لمصر، فسارع بالكتابة الى عامل الجزيرة والموصل اسحاق بن كنداج يحذره من إفلات ركب الخليفة منه بقوله: (متى اتفق ابن طولون مع الخليفة المعتمد لم تبقَ منكم باقية)(م.ن، د.ت, ص 292). خرج اسحاق بجيشه خارج الموصل لاستقبال الركب فما أن وصل الخليفة قرب الموصل منعه من دخولها وعنفه مخاطباً إياه: (أخوك يا أمير المؤمنين في حربه مع العدو - صاحب الزنج - وأنت تخرج من مستقرك فمتى علم رجع عن قتال الخبيث - صاحب الزنج - فيغلب عدوك الى دار آبائك) (م.ن، د.ت, ص 293.). فوكل حرساً به وأعاده

إلى بغداد. إن دعوة ابن طولون للخليفة زادت من حدة الخلاف بين الموفق وابن طولون اذ حمل الموفق على الخليفة المعتمد بعزل ابن طولون عن ولاية مصر والشام، وأمر بلعنه على المنابر واصفاً إياه بأنه عدو الله المباين لجماعة المسلمين وأنه أظهر معصية وشقاق ومرق من الدين وخالف أمير المؤمنين وأخرب الثغور..) (م. ن، د.ت, ص 299.). اما ابن طولون فقد جمع الأمراء والقضاة والخاصة بدمشق نفس السنة وطلب منهم خلع الموفق لأنه بحسب اجتهاده انه نكث بأمير المؤمنين وخلع الطاعة وبرئ من الذمة فوجب على الأمة جهاده وخلعه، فخلعوه الكل بالإجماع طاعة له إلا القاضي بكار بن قتيبة، القاضي بكار بن قتيبة ولاه الخليفة المتوكل قضاء مصر سنة (246هـ) وله اخبار مشهورة بالعدل والزهد والنزاهة تولى قضاء مصر أربعاً وعشرين سنة (ينظر: الكندي, 2003م، ص 477-479) رفض خلعه فأسرع ابن طولون في القصاص منه لأنه كان شديد على من خالف هواه ورأيه فقيده وحبسه وصادر أمواله (ابن خلكان، 1971،ج 1/ص281). وأمر بلعن ابن طولون على المنابر وأسقط اسمه من الطراز (الطراز هو البز والهيئة وطرز الثوب هو ما ينسج من الثياب للسلطان والطراز هو علم الثوب. (ينظر: ابن منظور, 1994م،ج 3/ص655)، وأرسل إلى مكة في موسم الحج قائداً جلداً لمنع الدعاء لأبي أحمد الموفق على منابر مكة وبالموقف وبعرفات. وبالمقابل أرسل الموفق قائداً مع الحجاج لمنع عسكر ابن طولون من إحداث الفتنة فانحاز أهل مكة الى جانب قائد الموفق فهزم أصحاب ابن طولون (البلوي، د.ت، ص 398).

إن صراع ابن طولون مع الموفق طلحة كان له أثراً سلبياً على ما حققه في بلاد الشام من انتصارات وإنجازات فقد ثارت الثغور الشامية (269هـ) فخرجت طرطوس عن سيطرة ابن طولون بعد أن أعلن متوليها يازمان الخادم , يازمان الخادم غلام الفتح بن خاقان عرف ببسالته وحبه للجهاد وتوفي غازياً. (ينظر: المسعودي، 1993 , ج4/ص174) تمرده على ابن طولون ومنع الدعاء له ولعنه على المنابر (ابن بردي، 1963،ج 3/ص45). لم يقف ابن طولون مكتوف الأيدي إزاء هذا الوضع، فقد سار إلى الشام بجيشه لقتال يازمان واستخلف على مصر ابنه خمارويه. فنزل أذنة ثم سار نحو طرسوس وقد تحصن بها يازمان وكان الوقت شتاءً فأطلق يازمان على جيش ابن طولون مياه نهر البردان، نهر البردان نهر بثغر طرسوس مجيئه من بلاد الروم يصب بالبحر المتوسط. (ينظر: الحموي، 1977،ج 1/ص376) ، فاضطر ابن طولون إلى الانسحاب فمات الكثير من جيشه أثر الثلوج والبرد فمرض ابن طولون وعاد بجيشه سنة (270هـ) إلى مصر رافضاً طلب قادة جيشه بالمكوث حتى يزول البرد ويعاود قتال يازمان بقوله: (والله لا رآني الله عز وجل وأنا أجهز جيشاً لمحاربة طرسوس سكن المسلمين والإسلام) (البلوي، د.ت، ص 312). إذ كانت طرسوس ثغره المحبب يقيم الجهاد بها منذ شبابه لذا كان يحمل الى طرسوس وغيرها من الثغور الأموال والسلاح والكراع والثياب مالم يحمله إليها أحد قط (م. ن، ص 183.). رجع ابن طولون سنة (270هـ) الى مصر وقد اشتد

مرضه فجزعت عليه رعيته فخرج المسلمون بالمصاحف، واليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل يدعون له محبة فيه وشكرهم لجميل أفعاله وكثرة معروفه وإحسانه لهم فقد أمنهم ورخص أسعارهم وراعى مصالحهم ودفع عنهم كل مكروه (البلوي، د.ت، ص 199). توفي ابن طولون سنة (270هـ) وخلف في خزائنه الكثير من الذهب والأموال، وترك من المماليك سبعة آلاف مملوك، ومن الغلمان أربعة وعشرين ألف غلام، ومن الخيل سبعة آلاف فضلاً عن البغال والحمير والدواب. فقد كان ما يدخل في خزائنه كل سنة بعد مصارفه ألف ألف دينار (ابن بردي، 1963،ج 3/ص21) كانت مدة ولايته على مصر والشام ستة عشر عاماً (254-270).

بعد وفاة ابن طولون اجتمع رجال الدولة والخواص وكبيرهم أحمد بن محمد الواسطي والغالب على الدولة الحسن بن مهاجر فاتفقوا على بيعة إبنه أبي الجيش خمارويه (ابن خلدون، 1998 ، ج4/ص396) رغم ان ابن طولون لم يعهد لأحد بالإمارة، وبذلك ارتكب الطولونيون خطأ في اتخاذ مبدأ التوريث بالحكم، والذي كان سبباً في إضعاف الإمارة الطولونية.

تولى خمارويه عرش الإمارة (270-282هـ) والأوضاع فيها مضطربة فقد ثار السودان بمصر على صاحب الشرطة فقصدهم خمارويه بعساكره فقتل من قتل وأمن من أستأمن فسكتت الفتنة (ابن الأثير، 1965، ج6/ص349) وفي الشام حاول خمارويه السير على خطى أبيه في إحكام سيطرته عليها، كان بطلاً شجاعاً وجواداً إلا انه كان مسرفاً، مبذراً لبيوت الأموال، كثير اللهو (الذهبي، 1985،ج 10/ص470)، ورث الإمارة والعلاقة مع مركز الخلافة سيئة وهذا ما شجع البعض في الطمع بملك الشام، فقد خرج اسحاق بن كنداج عامل الجزيرة والموصل بعد تلقيه المدد من الموفق الى الرقة والثغور فملكها من يد عامل ابن طولون ابن دعاس (ابن خلدون، 1988،ج 4/ص391) ولم يستطع دخول دمشق، فسارع خمارويه بإرسال أحمد بن الواسطي في جيش الى الشام والقائد سعد الأعسر على جيش آخر، وبعث بمراكب في البحر لتقيم بالسواحل الشامية، فنزل الواسطي فلسطين وهو خائف من خمارويه لأنه أشار إليه بقتل أخيه العباس فكاتب الموفق طلحة يحرضه على قتال خمارويه (ابن بردي، 1963، ج3/ص50-51) فانتهز الموفق الفرصة للانقضاض على إمارة ابن طولون، فأرسل ابنه العباس بجيش من أربعة آلاف مقاتل فنزل الرقة وتسلم قنسرين والعواصم من ابن كنداج واستطاع دخول دمشق فخرج خمارويه بجيش عظيم سنة (271هـ) فالتقى مع ابن الموفق على نهر فطرس المعروف بالطواحين من أرض فلسطين استطاع خمارويه من تحقيق النصر وبعد معارك كبيرة تمكن جيشه من دخول دمشق والعواصم، فعظم أمره وهابه الناس (ابن بردي، 1963،ج 3/ص51). فكتب الى الموفق طلحة يدعوه للصلح فأجابه الخليفة المعتمد الى ذلك وكتب لخمارويه بولايته على مصر والشام جميعها والثغور ثلاثين سنة، فأعاد خمارويه الدعاء لأبي أحمد الموفق في مدنه، فسكنت الفتنة.

كانت إمارة الطولونين بخيراتها مطمع للطامعين بها، فقد تحرك محمد بن أبي الساج من أرمينيا والجبال بجيش عظيم سنة (276هـ) قاصداً الشام فقصده خمارويه بجيشه قرب دمشق فهزمه واستأمن عسكره (م. ن،ج 3/ص52). أما يازمان الخادم صاحب طرسوس الذي خلع الطاعة فقد هادنه خمارويه وبعث إليه بالهدايا فرجع الى طاعته (ابن خلدون، 1998 ،ج4/ص399). وتولى خمارويه غزو الثغور الشامية فقد غزت عساكره بقيادة القائد التركي طغج بن جف الفرغاني طرابزون، وفتح مكدونيا (ابن خلدون، 1998 ،ج 4/ص399).

ولما تولى الخلافة أبو العباس بن الموفق طلحة - المعتضد - (279-289هـ) بادر إليه خمارويه بالتحف والهدايا فأقره على عمله، وعرض خمارويه على الخليفة المعتضد الزواج من ابنته قطر الندى وكانت أكمل نساء عصرها في الجمال والأدب فتزوجها سنة (281هـ) فصارت بين خمارويه والخليفة مودة فولاه من الفرات الى برقة ثلاثين سنة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء بمصر وجميع الأعمال على أن يحمل إليه في العام مائتي ألف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف دينار عن المستقبل وهذه سياسة (ابن بردي، 1963،ج 3/ص53) اتبعها خلفاء هذه الفترة مع أصحاب ولايات الأطراف من أجل رفد خزينة الدولة بالأموال والتي أصبحت شبه خاوية في ظل استقلال تلك الولايات وتنامي النفوذ التركي واستغلالهم لأموال الدولة وأقطاعاتها لصالحهم.

قتل خمارويه سنة (282هـ) إذ ذبح على فراشه من قبل مجموعة من غلمانه (ابن خلدون، 1998 ، 400/4) فتولى الإمارة ابنه جيش بن خمارويه (282-283هـ) ولم يكن أهلاً لها بل كان نذير سؤوم على الإمارة، فقد كان جيش صبياً غراً عاكفاً على الملذات، قرب الأحداث والسفلة وتنكر لكبار رجال الدولة والقواد وصرح لهم بالوعيد، مما حدى بهم بأن يجمعوا على خلعه وقالوا له: (لا نرضى بك أميراً علينا فتنح حتى نولي عمك) (مسكويه, 2000م، ج4/ص504)، إلا أنه قتل عميه فثار عليه الجند وسائر القواد فقتلوه ونهبوا داره وبايعوا لأخيه هارون بن خمارويه بعد ولاية لم تتجاوز الستة أشهر(المقريزي, 1998م،ج 2/ص134).

تملك الإمارة هارون (283-292هـ) وهو ابن أربع عشرة سنة وهو لا يحسن التدبير والأمر كله الى أبي جعفر بن سليمان مدبر مملكته (ابن كثير، د.ت،ج 11/ص88). فضعفت الإمارة وأصبحت في إدبار، فقد امتنعت دمشق عن بيعته فأرسل إليها جيشاً بقيادة بدر الحمامي والحسين بن احمد الماذرائي فأصلحا أمرها ورجعا الى مصر وقد اضطربت فيها الأمور فاشترط الخليفة المعتضد على هارون بن خمارويه بأن يقاطعه على أعماله بمصر والشام على أن ينزل عن أعمال قنسرين والعواصم - الثغور - وأن يرسل إليه ألف ألف دينار كل سنة (م. ن، ج11/ص83) فأجابه الى ذلك لتفادي المواجهة. الا انه ظلت بلاد الشام مطمع لكل طامع

وكلفت الطولونيين الكثير، فقد ظهر سنة (289هـ) رجل من القرامطة, هو يحيى بن زكرويه - صاحب الشامة - الذي أدعى بأن نسبه يرجع الى الإمام جعفر الصادق وقد كذب في ذلك وإدعى بأن ناقته مأمورة حيث ما توجهت وأنه كان على مائة ألف. (ينظر: ابن كثير، د.ت ،ج11/ص98). وجمع جموعاً كثيرة من الأعراب وغيرهم من الموالين له وأتى دمشق وبها عامل هارون طغج بن جف فكانت بينهما وقعات قتل فيها الكثير إذ هزم جيش طغج بن جف، فاستغاث أهل الشام بالخليفة المكتفي (289-295هـ) لحرب القرمطي بعد أن استباح دمشق وفعل الأفاعيل بأهلها حتى أشرفوا على الهلاك (مسكويه، 2000، ج5/ص29). استغل الخليفة المكتفي هذه الدعوة من أهل الشام للخلاص من الطولونيين فقد أرسل جيشاً عظيماً عليه القائد محمد بن سليمان الكاتب الذي كان على ديوان الجند فتمكن من إلحاق الهزيمة بالقرمطي وقتل الكثير من أتباعه وسيطر على الشام حتى أصبح على حدود مصر سنة (292هـ)، إن خروج الشام من سلطة بني طولون كانت بداية النهاية إذ انحاز الكثير من قواد الأمير هارون الى القائد محمد بن سليمان وعلى رأسهم بدر الحمامي الذي انظم هو وعسكره الى محمد بن سليمان الذي زحف الى مصر فدخل الفسطاط بعشرة آلاف مقاتل (ابن كثير، د.ت ، ج11/ص111)، فلم يقوى الأمير هارون بما بقي معه من عساكر على مواجهة جيش محمد بن سليمان فقاتل إلا انه قتل بسهم طائش فتغلب على الإمارة شيبان بن أحمد بن طولون إلا انه لم يكن يعلم ان الإمارة الطولونية قضى امرها إذ دخلت عساكر محمد بن سليمان القطائع وكسروا جيوشها واستولوا على دور آل طولون وأسبابهم وهجموا على دور الناس ونهبوها واستباحوها وأستصفى محمد بن سليمان الأموال (ابن بردي، 1963، ج3/ص139) وكتب بالفتح للخليفة فكوتب بأن يشخص آل طولون الى بغداد ولا يترك أحداً منهم في مصر والشام ففعل (مسكويه، 2000 ، ج5/ص39).

لقد عدّ محمد بن سليمان دخوله لمصر نصراً وفتحاً للخلافة، لذا نراه استباح المدينة وأمر بإحراق القطائع ونهب الأموال وأطلق من في السجون وخرب الميدان والقصور حتى أصبحت إمارة بني طولون أثراً بعد عين (المقريزي, 1998م،ج 2/ص36.). فزالت إمارة بني طولون من مصر والشام بعد حكم امتد (254-292هـ). وصدق حدس ابن طولون لما عد ان مفتاح مصر هو الشام فما أن خرجت الشام من ملك بني طولون حتى زال منهم ملك مصر.

2. أحوال مصر والشام الاقتصادية في ظل بني طولون: ما أن قدم أحمد بن طولون مصر نائباً عليها من قبل واليها بايكباك سنة (254هـ) حتى بدأ يتطلع للسيطرة على الأمور المالية وسبل إصلاحها للنهوض باقتصادها المتدهور، إذ كان أهل مصر يعانون من تسلط والي الخراج احمد بن المدبر منذ سنة (247هـ) والذي استغل اموال الخراج لمنفعته الشخصية فأفسد وطغى وفرض الضرائب المجحفة على أهل مصر (سليمان، 2003 ، ص 31)، فجمع الأموال دون خوف أو رادع من قبل الخلافة إذ لم يكن هناك رقابة من قبل الخليفة على عمال

الخراج خاصةً في ولايات الأطراف بل تكتفي الخلافة بما يرسل إليها من الأموال سنوياً من قبل والي الخراج الذي يكسب ود الخلافة بها ليحتفظ بعمله.

جدّ ابن طولون في أن يكون الخراج بيده فكتب الى الخليفة المعتمد يطلب توليه خراج مصر فأقره عليه وولى ابن المدبر خراج فلسطين والأردن (ابن خلدون، 1998 ،ج 4/ص299)، إلا أن ابن طولون ما أن احكم سيطرته على خراج مصر، قبض على ابن المدبر (267هـ) وعزله وحبسه وصادر أمواله (ابن بردي، 1963،ج 3/ص43) وولى على خراج الشام من قبله من يثق به فيما ولى على خراج مصر كاتبه ابن دشومة لما رأى عليه من حرص على الأموال بل وجعل عليه عيناً وهذا ما يدل على مدى حرص ابن طولون على إصلاح هذه المؤسسة المالية التي إن صلحت إدارتها إزدهرت الدولة فهي الباب الأكبر للفساد في كل عصر. عمل ابن طولون على التخفيف عن كاهل المصريين، فألغى الكثير من الضرائب المجحفة بحقهم التي كان ابن المدبر قد فرضها عليهم.

ولما كان أغلب شعب مصر يمتهن الزراعة اهتم ابن طولون بالفلاحين، فاستصلح الكثير من الأراضي الزراعية فالزراعة هي عمود اقتصاد مصر قال في ذلك: (إن الضياع تشبه البستان والمزارعون شجرة، فإن رُفِقَ بهم وأحسن القيام بأمرهم، طلعت الثمرة وزكت، وإن لم يفعل ذلك هلكت الشجرة وذهب ثمرها) (البلوي، د.ت، ص 190). كما أمر ابن طولون بإصلاح الأراضي التي تركها أصحابها مقابل أن يرسل جزءاً من مواردها لملاكها الأصليين (حسن احمد، د.ت ، ص 53)، فعمل على شق الترع والقنوات وبنى القناطر وحفر الآبار، وأنشأ السقايات في الصحارى للمسافرين (المقريزي, 1998م،ج 3/ص350-351)، وقام بإصلاح مقياس مياه النيل وقدر له ألف دينار، وبنى مقاييس جديدة (السيوطي, 1967م،ج 3/ص367).

إن إصلاحات ابن طولون المالية أدت الى تدفق الأموال لبيت المال فقد ارتفع خراج مصر على عهده الى أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار بعد أن كان قبل توليه لمصر ثمانمائة ألف دينار (المقريزي, 1998م،ج 1/ص185). إن فائض الأموال مكنت بن طولون من أن يحمل الى الخليفة المعتمد في مدة أربع سنين ألف ألف دينار ومئتي ألف دينار(ابن بردي، 1963،ج3/ص14) إذ كان بسط اليد يرضي الخليفة وولي العهد وأصحاب السلطان.

اهتم ابن طولون بعمران مصر أكثر من الشام وذلك إن الشام كانت عامرة فهي مركز الخلافة للأمويين لعقد من الزمن ففيها الدور والقصور والجوامع والأسواق وما إلى ذلك وفيها الثغور التي يرابط بها المجاهدون والتي حرصت الخلافة في إعمارها لمواجهة الروم وهجماتهم. لذا نجد أن ابن طولون اهتم بإعمار مصر عمارة تميزها عن غيرها إذ كان يميل الى الترف في العمران، فلما بنى القطائع واتخذها مركزاً لحكمه بنى فيها قصره العظيم وتأنق بتصميمه فجعل لقصره القباب والأبواب ولكل باب اسم فباب

الميدان الكبير كان منه الدخول والخروج لجيشه وخدمه، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصته وأبواب كثيرة أخرى كل باب لها خاصيتها، ولا تفتح هذه الأبواب كلها إلا يوم العيد أو يوم عرض الجيش. وبنى أمام قصره الميدان ليستعرض فيه جيوشه ويقيم فيه احتفالاته. ثم أمر ابن طولون غلمانه وأصحابه أن يختطوا لأنفسهم حول قصره وميدانه بيوتاً فقسمت الأرض الى قطائع عدة فكانت كل قطيعة لطائفة معينة تسمى بها. فكانت هناك قطيعة للعسكر، وقطيعة للروم، وقطيعة للعبيد، وقطيعة للسودان ولكل صنف من الغلمان قطيعة تعرف بهم (م. ن، د.ت ,ج 3/ص15 وما بعدها). وعمرت القطائع عمارة حسنة وتوسعت حتى اتصل البناء بالفسطاط فصارت أعمر من مدن الشام (المقريزي, 1998م،ج 2 /ص122) إذ عمرت بها الأسواق المتخصصة فكان هناك سوق للبقالين وآخر للشوائين، والطباخين والخبازين والحدادين وهكذا لكل باعة سوق، وجعل فيها مناخ للإبل، وبرك للماء وعمرت الطواحين والأفران والحوانيت (ابن بردي، 1963، ج3/ص16).

أهتم ابن طولون بعمارة المساجد فقد بنى جامعه الكبير ليضاهي به جامع سامراء والذي لا تزال آثاره باقية بناه على جبل يشكر وهو مكان له خصوصية عند المصريين بأنه مكان مستحب فيه الدعاء (المقريزي, 1998م،ج 2 /ص235) صممه بنفسه فاختطه وهندس منارته حتى صار التصميم خاص ببني طولون وأنفق عليه مائة وعشرين ألف دينار(ابن بردي، 1963، ج3/ص8).

اهتم ابن طولون بالإصلاح الإداري فأنشأ ديوان الإنشاء، إذ لم يكن بمصر ديوان إنشاء منذ الفتح (السيوطي، 1967، ج2/ص232) واستعان عليه بكتاب من بغداد إلى جانب كتابه من أهل مصر، كما استحدث منصب الوزارة إذ كانت مصر بلا وزارة، فجعل خمارويه بن أحمد بن طولون محمد بن رستم الماذرائي وزيراً له (م. ن، د.ت, ج2/ص201)، ليضاهي به منصب الوزارة في دار الخلافة.

عمل ابن طولون على العدل في رعيته، فكان لا يقلد على الشرط إلا الثقاة من وجوه القواد ويأمرهم بالعدل في شعب مصر وقضاء حوائجهم وإكرامهم وتفقد مصالحهم. فابن طولون أول من نظر في المظالم بمصر إذ كان يجلس بنفسه يومين في الأسبوع للنظر في مظالم أهلها وشديد في ردها، وخلفه ابنه خمارويه في ذلك (المقريزي, 1998م،ج 3/ص362.). وكثيراً ما كان ابن طولون يجلس في القبة التي في أعلى قصره يتسمع ويراقب فيها أحوال مصر فيراعي فقرائها فهو كثير الصدقة كان يتصدق صدقات الشكر على ما أنعم الله عليه، فقد كان ينفق على مطبخ الفقراء كل يوم ألف دينار وكان مناديه ينادي من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر(م. ن، د.ت, ج2/ص124)، وكان يأمر وكيله على الصدقات قائلاً: (إحذر أن ترد يداً مدت إليك أبداً) (ابن بردي، 1963، ج3/ص7). وبهذا كسب ابن طولون محبة أهل مصر له لإيمانه بأنه: (ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده، فيحتويه فإنه يملكهم ملكاً لا يزول به

عن قلوبهم) (البلوي، د.ت، ص 357). لم يقتصر ابن طولون على بذل الأموال على أهل مصر فحسب بل انه كان يبعث بالأموال الى دمشق وبغداد والجزيرة والثغور وسامراء إذ بلغ ما كان يبعثه خلال مدة ولايته ألفي ألف دينار ومئتي ألف دينار(ابن بردي، 1963،ج 3/ص7). كان ابن طولون بسط اليد إذ كان يحمل الى الحرمين الأموال والحنطة والثياب وكل ما يحتاجه أهلها (البلوي، د.ت، ص 184). وبهذا نرى أن ابن طولون قد خفف عن كاهل الخلافة العباسية ببذله الأموال على الولايات العباسية.

اهتم ابن طولون بالجانب الصحي لأهل مصر فقد بنى بيمارستان كبير بستين ألف دينار(م، ن، د.ت , ص 349)، واشترط فيها أن لا يعالج بها جندي أو مملوك وهذا ما يدل على انه كانت هناك مشافي للجند بمعسكراتهم، وعمل على توفير العلاجات النفيسة للأمراض الخطيرة التي لم تكن إلا في خزائن الملوك والخلفاء ورفد المستشفى بالأطباء فضلاً عن توفير الطعام للمرضى (م.ن، د.ت, ص 183).

إن رعاية ابن طولون للمصريين والتفافهم حوله كان عاملاً مهماً في بناء دولته خاصة وأنه تحرى العدل فيهم بكل طوائفهم فالعدل أساس الملك. فقد رفع أحد رهبان النصارى تظلمه من صاحب كورته لابن طولون فتحرى ابن طولون الحق ورفع مظلمته وأمر بحبس صاحب الكورة (م.ن، د.ت, ص 206) أما في الشام فقد قام بترميم ما خرب من دور العبادة فقد احترقت كنيسة بالشام فأمر بسبعين ألف دينار من ماله وأن يعطى لكل من احترق له شيء قربها ويقبل قوله ولا يستحلف، ثم أمر بمال عظيم يفرق على فقراء أهل دمشق والغوطة (ابن بردي، 1963، 3ج/ص13-14).

عمل ابن طولون على تطوير الواقع العلمي لمصر فقد اهتم بالعلوم العقلية والنقلية وحرص على استقدام الفقهاء والعلماء من سائر الأمصار فأغنى جامعه بالقرّاء والفقهاء وكتاب الحديث وأغدق عليهم. وحرص على حضور مجالسهم وحلقاتهم، كما حرص على رعاية طلاب العلم وأوقف عليهم أوقافاً كبيرة للنفقة عليهم فكثر الوافدين لمصر (السيوطي، 1967، ص 125).

إن موقع مصر المتميز على البحر جعلها قبلة للسفن التجارية قال المقدسي: (من كان مراده التجارة فعليه بمصر) (المقدسي,1991م، ص 82.) فعمل ابن طولون على تنشيط التجارة في موانئها لتحقيق ازدهار اقتصادي، فقد أمر ببناء خليج الاسكندرية بعد أن انقطع الماء عنها لعوارض سدت خليجها (المقريزي, 1998م،ج 1ص/317). ورمم منارة الإسكندرية وبنى قبة أعلاها لتكون برجاً لمراقبة مراكب البحر. كما رمم مدن شاطئ البحر ما بين مكة ومصر وسوى طرقها (م. ن، د.ت, ج1/ص292، 341) ليسهل التنقل التجاري بها فازدهرت التجارة وكثرت السفن الراسية في موانئ الاسكندرية فازدادت أموال الجبايات على المراكب والسفن فكثرت الأموال وبالتالي ساعد ذلك على ظهور نهضة صناعية شجعت أصحاب الحرف في أنحاء الخلافة على الوفود الى مصر، فقد ازدهرت فيها الصناعات النسيجية كون مصر مشهورة بإنتاج

القطن فأنشأ ابن طولون المعامل النسيجية لتطوير هذه الصناعة وجعل العمل فيها مستمر ليلاً ونهاراً بعد أن ذاعت جودتها في الآفاق إذ كان يرسل بالخلع والمطارف المنقوشة والمنسوجات النفيسة لدار الخلافة والوزراء وكبار الشخصيات فضلاً عن احتياجات قصوره وأمراءه (حسن أحمد، د.ت ، ص 137) كما أبدعت مصانع النسيج بتصنيع كسوة الكعبة وتطريزها سنوياً (البلوي، د.ت، ص 184). إن الحياة المترفة التي عاشها بني طولون شجعت على ظهور صناعة جديدة، سميت بصناعة الترف (حسن أحمد، د.ت ، ص 213.)، فأقام من المصانع ما كانت حاضرة بني العباس عاجزة عن محاكاتها. إذ ازدهرت صناعة المعادن والنحاس والذهب والزجاج والأخشاب والتحف وغيرها من الصناعات اليدوية النفيسة والتي تجلت بوضوح في جهاز ابنه خمارويه وقطر الندى التي تزوجها الخليفة المعتضد فقد كان اعجوبة عصره (ابن بردي، 1963، ص 62 وما بعدها).

إن إمارة بني طولون كانت شبه مستقلة عن حاضرة الخلافة لذا عمد ابن طولون من أجل تحقيق ازدهار اقتصادي على سك الدينار الأحمدي والذي امتاز بثقل وزنه وخلوه من الغش والتزييف (البلوي، د.ت، ص 184-185)، إن هذا الازدهار الاقتصادي لإمارة بني طولون ساعد في ظهور طبقة من الاغنياء ضاهوا بأموالهم كبار أمراء بني طولون فأسهموا في بناء المشاريع الصناعية والتجارية وغيرها، إذ لم تشهد مصر مثل هذه الطبقة من قبل (سليمان، 2003 ، ص 56.).

اهتم ابن طولون بالصناعات الحربية لحماية إمارته من الطامعين وكذلك لرفد الخلافة بالمعدات العسكرية لكسب ودها، فقد اهتم بصناعة الأسلحة الخفيفة والثقيلة، وبنى السفن الحربية وشدد واجتهد في إتقانها أشد ما يكون (المقريزي, 1998م،ج 3/ص317) وعمّرَ الحصون لحماية إمارته فبنى حصن الجزيرة وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ورمم الحصون القديمة كحصن القلعة والروضة (م. ن، د.ت, 324/3). وفي الشام فقد بنى حصن يافا إذ لم يكن لها حصن وبنى سور عكا وأبوابها (البلوي، د.ت، ص 184). توفي ابن طولون تاركاً وراءه أسطولاً مكوناً من مائتي قطعة حربية تامة التجهيز بالعدد والسلاح (م. ن، د.ت, ص 349).

وبوفاة أحمد بن طولون لم يبقَ حال مصر الاقتصادي على ماهو عليه إذ لما تولى السلطة ابنه خمارويه بدأ الضعف يدب بالإمارة فانتكست الأحوال الاقتصادية في مصر وذلك لإسرافه وانغماسه بالملذات والملاهي، أنفق أموال الدولة حتى خوت خزائنها، فكثرت الفتن في البلاد وخرجت أجزاء من بلاد الشام من أيدي بني طولون (حسن خليفة، د.ت ، ص 181)، ولم يولي خمارويه شعب مصر أي اهتمام فكان كل ما يرد الى خزينة الدولة له ولحاشيته وجواريه وغلمانه وحرسه الذي وسع لهم بالعطاء والأرزاق وألبسهم الحرير والديباج والمناطق المذهبة (ابن بردي، 1963،ج 3/ص59)، وأسرف خمارويه في عطاياه وهداياه فقد قدمت

رسله الخليفة المعتضد لما تولى الخلافة (279-289هـ) بهدايا عظيمة من الذهب والخلع وسيفاً وتاجاً ووشاحاً (م. ن، د.ت, ج 3/ص53)، كل ذلك على حساب شعب مصر الذي أصبح يعاني من ضيق اقتصادي، كما أن تزويج خمارويه ابنته للخليفة المعتضد وإسرافه في جهازها الذي وصل حد الخيال من كثرة ما حوى من ذهب وجواهر ونفائس وهدايا وتحف لم ير مثلها ولا سمع بها. فضلاً عن إسراف خمارويه في تجديد القصور والميدان وبناء القبب والحجرات المطلية بالذهب وإتخاذ بساتين خاصة له ولحاشيته، زرعها بالأشجار النفيسة وكسا أجساد النخيل نحاساً وذهباً، وأكثر من أصطبلاته ودوابه التي بلغت حد الخيال (ابن بردي، 1963،ج 3/ص54 وما بعدها).

خلاصة القول ان إمارة بني طولون بدأت بالانحلال بوفاة مؤسسها أحمد بن طولون إذ لم يكن أبناء أحمد بن طولون على قدر المسؤولية لتحمل أعباء الدولة وإكمال مسيرة ابن طولون الإصلاحية وهذا من مساوئ توريث الحكم لأشخاص لم يؤهلوا ويعدوا إعداداً قوياً يتحمل عبء المسؤولية لإدارة الدولة. فلم يتعض الطولونيون بما جرى للخلفاء العباسيين من جراء هذا النهج في التوريث الذي أثبت فشله.

لقد أثنى الكثير من الشعراء والأدباء والمؤرخين على سيرة الطولونيين وامتدحوهم. وذلك ان آل طولون كانوا أهل كرم وبذخ فكانوا لا يردون سائلاً، وإنهم اتخذوا من الشعراء وسيلة لمد سلطانهم وزيادة نفوذهم. فكان بلاط آل طولون الأدبي أشبه مايكون ببلاط خلفاء بني العباس. وتجتمع النصوص التي أثرت عن الإمارة الطولونية ان الشعراء كثروا في عهدها، وكثيراً منهم أبكى سقوطها وأشاد بأفعال الطولونيين ومنشآتهم وأيامهم (ضيف، 1995م،ج 1/ص465) فقد وصف ابن تغرى بردي إمارة بني طولون بأنها من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام. أما الكتاب المحدثين فقد أثنى الكثير منهم وخاصة الكتاب المصريين على إمارة بني طولون واعتبروا بأن فترة حكمهم تمثل صفحة رائعة في تاريخ مصر لإحاطتهم ورعايتهم شعب مصر (سليمان، 2003، ص 61).

خلاصة البحث:

من خلال دراستي لهذا الموضوع استنتجتُ مايلي:

1. تمكن القائد التركي أحمد بن طولون من الاستئثار بحكم مصر تحت مسمى إمارة بني طولون وضم لملكه الشام مستغلاً ضعف الخلافة فكانت الإمارة الطولونية التي انفصلت عن جسم الدولة العباسية فحكمها الطولونيون حكماً ذاتياً مدة ثمان وثلاثون عاماً.
2. استطاع القائد أحمد بن طولون بذكائه ورجاحة عقله وشجاعته من بسط الأمن والنهوض باقتصاد مصر والاهتمام بشعبها فأحبه المصريون والتفوا حوله إلا انه أخفق في تولية العهد لمن يستحق بأن يقوم بأعباء الإمارة ويحافظ على منجزاته فلما تولى الإمارة بعده بنوه بدأت بوادر الضعف والانحلال

تدب بالإمارة وبدأت النظم التي وضعها مؤسس الإمارة تتهاوى في خطى سريعة خاصة بعد أن دب النزاع بين أفراد البيت الطولوني.

3. إن تعامل الخليفة المكتفي مع إمارة بني طولون لأجل استرجاعها لحضن الخلافة كان مبالغاً به وقاسياً خاصة وإن الإمارة كانت تفي بالتزاماتها تجاه الخلافة، إلا ان قائد الجيش العباسي تصرف تصرفاً انتقاميا منها ومن أهلها فقد جاء على م اكان فيها من إعمار وأموال فجعله أثراً بعد عين ونحن نرى انه كان بالإمكان تفادي القتال والتدمير الذي أصاب مصر وأهلها بطرق كثيرة أخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير: محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1965م).
2. البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ)، فتوح البلدان (بيروت، دار الكتب العلمية، 1982م).
3. البلوي: عبد الله بن محمد المديني (القرن الرابع الهجري)، سيرة أحمد بن طولون، مخطوطة حققها وعلق عليها محمد كرد علي (دمشق، المكتبة العربية).
4. ابن تغرى بردي: يوسف بن عبد الله (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (مصر، دار الكتب، 1963م).
5. حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، (القاهرة، دار الفكر العربي).
6. حسن خليفة، الدولة العباسية قيامها وسقوطها، (القاهرة، المكتبة العربية).
7. الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ)، معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، 1977م).
8. الخضري: محمد بك، الدولة العباسية (القاهرة، مؤسسة المختار، 2003م).
9. ابن خلدون: عبد الرحمن (ت 808هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر، (بيروت، دار الفكر، 1988م).
10. ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (بيروت، دار صادر، 1971م).
11. الذهبي: شمس الدين بن عثمان بن قايماز (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985م).
12. زيود، محمد أحمد، العلاقات بين الشام ومصر في العهد الطولوني والأخشيدي، (دمشق، دار حسان، 1989م).
13. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، (مصر، دار أحياء الكتب العربية، 1967م).
14. سيدة إسماعيل: كاشف، مصر في عصر الولاة من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية، (القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1988م).
15. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، (مصر، دار المعارف، 1973م).
16. - الفن ومذاهبه في الشعر العربي، (مصر، دار المعارف، 1995م).

17. الطبري: محمد بن جرير، (ت 310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، (بيروت، دار التراث، 1966م).
18. علي سليمان محمد، إصلاحات أحمد بن طولون في مصر خلال منتصف القرن الثالث، (مصر، جامعة المنوفية، 2003م).
19. ابن كثير: إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت 774هـ)، البداية والنهاية، (بيروت، مطبعة المعارف).
20. كرد علي: محمد، خطط الشام، (دمشق، مكتبة النوري، 1983م).
21. الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف المصري (ت 355هـ)، كتاب الولاة وكتاب القضاة، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2003م).
22. المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (بيروت، المكتبة العصرية، 1993م).
23. مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421هـ)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، (طهران، مطبعة سروش، 2000م).
24. المقدسي: محمد بن احمد البشاري (ت 381هـ)، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (بيروت، دار صادر، 1991م).
25. المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1998م).
26. ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي (ت 711هـ)، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، 1994م).
27. اليعقوبي: أحمد بن اسحاق بن جعفر (ت 292هـ)، تاريخ اليعقوبي، (بيروت، دار صادر، 1995م).